أهل الذمة ومكانتهم في مجتمع المغرب الأوسط
(ق 7-10هـ/13-16م) خلال العهد الزياني

نميش سميرة
طالبة دكتوراه قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
بإشراف/ د. بوشقيف محمد

إن سياسة التسامح الديني التي عرف بها العالم الاسلامي بصفة عامة و المجتمع الزياني بصفة خاصة ساعدت كثيرا في وجود أجناس مختلفة من بقاع العالم، فتعددت الفئات و تنوعت التركيبة البشرية، و غدت مزيجا من الأفراد الذين مارسوا مختلف نشاطاتهم الحياتية وفق ما تمليه عليهم الشريعة الإسلامية، و من بينهم العنصر الذمي و المتمثل أساسا في اليهود و النصارى.
فما هي اهم العناصر التي شكلت المجتمع الزياني؟ و ان كان العنصر الذمي من بين الفئات المشكلة للمجتمع؛ فما هو الدور الذي قامت به هذه الفئة؟ و فيما تمثلت مكانة اليهود و النصارى بالمجتمع الزياني؟

من بين العناصر المشكلة للمجتمع الزياني نجد العنصر البربري الذي يعد من أهم الطبقات في الدولة الزيانية، خاصة قبائل زناتة [1]، و من أشهرها قبائل مغراوة، مغيلة، بني يفرن الذين اختطوا مدينة اكادير [2] بالاضافة إلى جراوة و جديحن وغمرة و بني واسين و بني مرين و بني عبد الواد و بني راشد و بني ورنيد...و غيرهم من القبائل الأخرى [3]، و قد اختلفت معيشتهم من قبيلة الى أخرى فهناك من امتهن الفلاحة والصناعة و التجارة وهناك من امتهن الوظيف [4].

ثم يأتي العنصر العربي الذي استقر ببلاد المغرب الإسلامي مع دخول الفاتحين العرب خاصة القبائل المضرية واليمنية وبعض القبائل الوافدة من بلاد الشام والحجاز والعراق ومصر وبلاد فارس...، التي انتشرت في جهات مختلفة من أراضي المغرب الأوسط، إضافة إلى قبائل بني هلال [5] التي اجتاحت ربوع المغرب في القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي [6]. استقدمهم يغمراسن بن زيان بعد سنة 633هـ/1235م إلى تلمسان وضواحيها للاستفادة منهم [7]، فكانوا عنصرا من عناصر الحياة، وأصبحت قوة لها وزنها، ويحسب لها حسابها، ومن أهم هذه القبائل: قبيلة "زغبة" [8] وقبيلة "سويد" [9]، لكنه سرعان ما ظهرت الفتنة بينهما وبين بني عبد الواد فطردهم من التلول والأرياف واستقروا بجوار بني توجين في الصحراء فهادنوهم وتصاهروا فيما بينهم حتى صاروا حلفاء ضد بني عبد الواد.

وقد عرف المغرب بصفة عامة العديد من الهجرات الأندلسية [10] الذين استقروا بالمغرب الأوسط منذ العصر المرابطي والموحدي ما بين القرنين 5 و7هـ/11 و13م [11] قاصدين مدينة

تلمسان طالبين الأمان والسكينة بعدما استولى الإسبان المسيحيين على أملاكهم وديارهم وهددوهم في عقيدتهم ولغتهم [12] ، كان أغلبهم من الأعلام وأهل البيوتات وأعيان الأندلس [13] .

كما عرف المجتمع الزياني فئات أخرى تمثلت في الأغزاز وهي من القبائل التركية، التي كانت تسكن شرق آسيا قبل الإسلام، واعتنقوه في النصف الثاني من القرن 14م/8هـ [14]، وحلوا ببلاد المغرب في عهد يوسف بن تاشفين سنة (450-500هـ/1088-1106م) واستخدمهم في الجيش 454هـ/1062م [15] ، وقد استخدمهم عبد المؤمن بن علي في جيشه لمحاربة مسيحي إسبانيا؛ والتحقوا بجيش يغمراسن بن زيان منذ بداية التأسيس 633هـ/1235م، أما انتماءهم العرقي فهناك من يرى بانهم أغزازا [16] و هناك من يرى بأنهم أكرادا [17] ، وقد اندمج الأغزاز في المجتمع العبد الوادي وتطبعوا بطبائعه.

وقد استخدم بنو زيان الصقالبة [18] الذين جاؤوا من إيطاليا وفرنسا، وقطلونية... بواسطة الشراء والغارات والغزوات للشواطئ الأوربية وجزر البحر المتوسط [19]، فنشأوا تنشئة إسلامية، عملوا في القصور كما كانت لهم فرقة في الجيش التي خصت بحراسة السلطان [20]، وتقلدوا القيادة وخطط الوزارة والحجابة، ومن أشهرهم هلال القطلاني [21] الذي أهداه السلطان الغرناطي محمد الثاني الأحمر (671-701هـ/1273-1302م) إلى بني عبد الواد [22] .

ثم تأتي طبقة السود التي عرفها المجتمع الزياني وفي الغالبية كانوا من الخصيان الذين استعملوا للخدمة في القصور والحقول والجيش، أما نساؤهن فكن من الجواري اللائي سخرن للخدمةفي المنازل [23] .

الى جانب هذه الفئات هناك طبقة أهل الذمة [24] و المتكونة اساسا من النصارى و اليهود؛ ان ظهور فالعنصر المسيحي يعود ظهوره بالدولة الزيانية الى فترات سابقة و هذا ما أكده البكري اذ يشير الى وجود كنيسة مسيحية منذ القرن الخامس هجري/11م [25]؛ أما العنصر اليهودي فقد ازداد تواجدهم في عهد الموحدين خاصة بعد الاضطهاد الذي شهدوه في بلاد الأندلس، كما عرفوا بطابعهم التجاري و نشاطهم في الحركة الاقتصادية خاصةطبيعة الموقع الذي تتمتع به الدولة الزيانية، كما أن تحكمها في الطرق التجارية ساعدهم على الاستقرار بالدولة خاصة تلمسان [26] .

مكانة اليهود و النصارى بالمجتمع الزياني:

مكانة اليهود:

إن سماحة الدين الإسلامي لم تفرض على اليهود أماكن للاستقرار بل وفرت لهم حرية السكنى والتنقل، فالتزموا بدفع الجزية وما عليهم من ضرائب [27] ولم يتعرضوا للاضطهاد إلا نادرا 28' وقد عاشت الجماعات اليهودية في بلاد المغرب نظام الجوار و الحماية في كنف القبائل البربرية والعربية، وظهر هذا خاصة في مدينة وارجلا عندما انحازت جماعة من اليهود بالمنطقة لجماعة

الخوارج والأخرى لفرقة مناوئة: "إنكم أظهرتم بينكم الفرقة، فطائفة يقولون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة يقولون حصيرنا وحصيركم، ويهودنا ويهودكم" [29]، و بهذا أضحى لليهود الحرية التامة في العيش سواء في المدن الكبرى أو الصغرى، فأكسبهم هذا مكانة بين المسلمين و ساعدهم على الاختلاط بهم، فشاركوهم الذبيحة، كما ساهموا في تحضير الطعام للمسلمين، ون أن ننسى حرية التجارة و براعتهم فيها و تمكنهم من التبادل التجاري و معرف المسالك و المنافذ أكسبهم قوة اقتصادية، فأصبح المسلمين يعتمدون عليهم في التعامل الاقتصادي الذي مكنهم من تحقيق أرباح و اكتساب رأس مال فكانوا يقرضون المسلمين الأموال عند الحاجة... [30]

ان الدور التجاري الذي تميز به اليهود و قدرة التحكم في الجانب الاقتصادي، كان سببا للتمازج مع المسلمين، كما كان سببا للاختلاط معهم في الأحياء ، فبنوا مساكنهم الى جانبهم شرط أن لا ترتفع أو تعلو على منازل المسلمين و مساجدهم [31] وسمح لهم ببناء البيع الخاصة بهم لإقامة شعائرهم الدينية شريطة ألا يضربوا النواقيس [32].

ان المكانة التي حظي بها اليهود و ميلهم لحياة التجمع فيما بينهم و رفضهم للاختلاط دفعهم للسعي من أجل إقامة أحياء خاصة بهم، وهنا برز دور يهود المغرب الأوسط خاصة يهود تلمسان الذين تمكنوا من إقناع السلطان من تجميعهم في حي واحد، عرف فيما بعد بحارة اليهود [33]؛ فقد كانوا يقيمون بالربط من أجادير، وبقوا هناك مدة من الزمن يباشرون شعائرهم الدينية، وتم تجميعهم بتاغرارت بمكان يعرف بالمرجة بالقرب من المشور [34].

و قد كان ليهود المغرب الأوسط دورا في المحافظة على الروابط الأسرية والاجتماعية، وذلك بالمحافظة على العادات والتقاليد، ومراسيم الزواج وفق الشريعة اليهودية، وإنجاب الأطفال وفق ما نص عليه التلمود، فالمرأة الأرملة لا يتزوجها إلا أخ الزوج الميت، و غالبا ما اجتهد اليهود في تدريب أفراد أسرهم على الترابط والتضامن مع أبناء الملة الواحدة وحرصهم الدائم على ارتباطهم ببيت المقدس [35]. فالمكانة التي حظي بها يهود المغرب الأوسط مكنتهم من حل النزاعات التي كانت قائمة بين اليهود الأهالي و اليهود المهاجرين و التي كان سببها الاختلاف في اللغة و المذهب و العادات و المفاهيم الاجتماعية [36]. أما فيما يخص مكانة المرأة اليهودية، فقد كانت واضحة خاصة في المحافظة على تطبيق الشريعة واحترامها داخل البيت [37]، بالإضافة إلى قيامها بالسهر على الواجبات المقدسة وتعليمها للصغار، لكن في الحقيقة أن التشريعات اليهودية كانت معارضة لحقوق المرأة، وحرمتها في مختلف المجالات باستثناء الميراث، كما تأثر اليهودي بسياسة الدين الإسلامي وسمح بتعدد الزوجات ، وسمح للرجال بالزواج من أربع يهوديات [38].

مكانة النصارى:

تمتع النصاري بمكانة إجتماعية مرموقة في ظل المجتمع الإسلامي،بحيث كانوا من أهم شرائح المجتمع الزياني، فشاركوهم في مختلف المجالات الحياتية، فاختلطوا معهم واندمجو فيهم

هذا ماأدى إلى تبادل العادات والثقافات، لكن هذا لم يمنعهم من الخضوع لأحكام الشريعية المفروضة عليهم. اذ تشير المصادر التاريخية إلى أن النصاري في بلاد المغرب الأوسط، لم تكن لهم آثار أو أدوار إجتماعية واضحة المعالم، خاصة بعد محاولة اغتيال السلطان يغمراسن ابن زيان من طرف فرقة مسيحية سنة 652هـ/1254م [39]، مما دفع سلاطين بني عبد الواد للكف عن استخدامهم، وظلوا على ذلك الحال إلى غاية عهد السلطان أبي حمو الزياني الثاني الذي استخدم فرقة منهم في جيشه ،كما ازداد عد التجار ورجال الدين الوافدين إليهم الذا أنه لم يكن يسمح لهم باصطحاب زوجاتهم هذا الأمر قلص من تواجدهم في بلاد المغرب الأوسط [40]. كما أن الأسرى المسيحيين أيضا كانت له مكانة في الدولة الزيانية خاصة و أن سلاطين بني عبد الواد كانوا يستخدمونهم في جميع الأشغال زد على ذلك مساهمتهم في الأغراض الصناعية و الحرفية كفن البناء و صناعة الأسلحة [41]، فخصص لهم حي خاص بهم عرف بربض النصارى، هذا ما ساعدهم على الحفاظ على عاداتهم و تقاليدهم و ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية [42].

وقد كانت للمرأة النصرانية مكانة في المجتمع الزياني، فيذكر بأنه وجدت بالقصر الزياني مجموعة من الأسيرات المسيحيات اللواتي أخذن للقصر للقيام بأمور القصر من خدمات و تنظيف باشراف امرأة عليهم عرفت بقهرمانة القصر [43].

أما الحياة الثقافية و الدينية فقد عرفت بلاد المغرب الأوسط توافد العديد من الأجناس البشرية ذات الديانات المختلفة ؛ فسماحة الدين الاسلامي أعطت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية و الالتزام بما عاهدوا عليه أصحاب الذّمة ؛ فسعوا الى الحفاظ على شريعتهم الدينية التي لم تمنعهم من التأثر بما كان في الدولة الزيانية.

فتشير المصادر التاريخية الى أن النصارى الذين كانوا متواجدين بالدولة الزيانية لم يكن لهم دور كبير في الجانب الديني على عكس المجال الاقتصادي، فان وجد كان بقيادة رجال الدين بالمملكة و تمثل دورهم الأساسي في حث الجنود المسيحيين على التمسك بالديانة المسيحية و المحافظة عليها ، فكان القس المسيحي يقوم بدوره لكن تحت اشراف السلطة المحلية الرسمية [44]. فالبابوية حملت المسيحيين مشروع اعادة المسيحية الى ربوع المغرب ، و حثّتهم على تعلم اللغة العربية و تعليمها في المدارس المسيحية ، التي تعد وسيلة من وسائل التبشير في المغرب، و كانت لهم كنائس بالفنادق الخاصة بهم [45].

كما كان لليهود دورا في تنظيم الطقوس الدينة و توحيدها، ففي أواخر القرن الثامن الهجري/14م عمل اليهود على تنظيم الهياكل الدينية و ذلك لحاجتها لتنظيم الطوائف اليهودية و نقل النماذج القديمة التي كانت سائدة في فلسطين، و ظهر منصب الناجد أو المقدم الذي عمل على تسيير النظام القضائي الداخلي ، و الناطق الرسمي لطائفته لدى السلطة الاسلامية ، كما يعمل على ممارسة الطقوس و الشعائر و الأعياد الدينية... [46].

كما برز الحاخامين الشهيرين ريباش و رشباش اللذان وضعا نظام الحلخة الذي كان سببا في حدوث مواجهات بين اليهود القدامى و اليهود المهاجرين[47]، وقد حظي أطباء اليهود بمكانة هامة في العهد الزياني و على رأسهم الطبيب ابن الأشقر[48] و هذا ما يؤكده عبد الباسط بن خليل فيقول:" "...لم أسمع بذمّي و لا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم و في علم الوقف و الميقات..."[49]

ان أهل الذمة بالدولة الزيانية حظوا بمكانة هامة فشغلوا مناصب عدة و من بينها القناصل التي كان لها الأثر البارز في المبادلات التجارية و الاقتصادية خاصة مع البلدان الأوربية، كما اهتموا بالطب و مختلف العلوم، مما دفعهم الى النظر في العلوم الدينة و اتقان اللغة العربية، و التي كان لها أثر كبير خاصة مع نهاية الدولة الزيانية و التي كان لها انعكاسات واضحة خاصة على الجانب السياسي.

الهوامش:

[1]- يرى ابن خلدون أن قبائل زناتة هي من اكثر القبائل تواجدا بالمغرب الأوسط، فيقول في هذا الشأن:"...و الأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب اليهم و يعرف بهم فيقال وطن ناتة"؛ ينظر: عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج7، 2000، ص6.

[2]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002،ج1، ص170.

[3]- خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن (دراسة تاريخية و حضارية 633هـ-681هـ/1235م-1282م)، ط1، دار الألمعية، الجزائر،2011، ص275.

[4]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...،ج1، ص171.

[5]- نفسه، ص 173.

[6]- عبد الحميد حاجيات، دور بني عامر في تاريخ الغرب الجزائري أيام الدولة الزيانية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2002، ص 157.

[7]- أبي حمو موسى، واسطة السلوك في سياسة الملوك ، تح: محمود بوترعة ،دار الشيماء للنشر و التوزيع . دار النعمان للطباعة و النشر ، الجزائر ،2012، ص16؛ ابن خلدون، العبر...،ج7، ص175؛ ابن خلدون يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،تح: عبد الحميد حاجيات، مطبعة الأخوين الشرفاء، الجزائر، 1910.،ج1، ص222.

[8]- زغبة: في العهد الموحدي استقرت هذه القبائل في المنطقة الممتدة من المسيلة إلى تلمسان، وما جاورها من الصحراء، استقدمهم يغمراسن أثناء فترة حكمه إلى ضواحي تلمسان للاستفادة من خدماتهم في بناء الدولة وتوسيع الرقعة الجغرافية؛ انظر: بن خلدون، العبر ...، ج6، ص 40.

[9]- سويد: وهم ينتسبون إلى ما لك بن زغبة، كانوا حلفاء العطاف والديالع لبربر بني يادين ربطتهم علاقات طيبة مع بني عبد الواد قبل تأسيس دولتهم بالمغرب الأوسط كما أنهم فيما بعد حالفوهم وقربهم يغمراسن إليه وكرمهم ببلاد البطحاء؛ انظر: ابن خلدون، العبر...، ج6، ص 46.

[10]- مؤلف مجهول، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تح: ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط1، 2002، ص 46.

[11]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، ص 173.

[12]- مؤلف مجهول، نبذة العصر...، ص، ص 46-47.

[13]- عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص 178.

[14]- عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص 178.

[15]- ابن أبي زرع علي الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م ، ص 139.

[16]- المراكشي، المعجب، ص 205.

[17]- ابن خلدون، العبر...، ج6، ص 304.

[18]- وهي لفظة فرنسية مشتقة من كلمة EXLAVE ومعناها العبيد أو الرقيق؛ انظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلسس و المغرب، تح و مرا: ج. بن كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ص 162.

[19]- ابن خلدون، العبر...، ج6، ص 236.

[20]- ابن حوفل، ابن حوفل النصبي، صورة الأرض، مطبعة برلين، لندن، ص 110.

[21]- هلال القطلاني: من بني النصارى أهداه السلطان الغرناطي لعثمان بن يغمراسن (681-703هـ-1283-1303م) ثم أبو حمو موسى (707-718هـ/1307-1318م) ثم لأبي تاشفين، الذي تقلد في عهد الحجابة والوزارة؛ انظر: ابن خلدون، العبر...، ج7، ص 236؛ ابن خلدون، بغية الرواد...، ج1، ص 125.

[22] عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ج1، ص 184.

[23]- Dhina Atallah , Les états de l'occident musulman aux XIII , XIU et XU siècles O.P.U, Alger, S,D.,P 50

[24]- فالذمي هو كل من يتدين بغير الإسلام، ويعيش في حمايته وفي كنف المجتمع الإسلامي محافظا على تدينه بغير الاسلام؛ فأهل الذمة هم الذين يدفعون الجزية للمسلمين الذين عاهدوهم على الحماية والأمان وتسهيل الأعمال و الواجبات؛ ينظر: النبهاني تقي الدين، الشخصية الإسلامية، ج2، دار الأمة للطبعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط5، 2003، ص، ص 223-227؛ حسين الحاج حسين، النظم الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1987، ص 335.

[25]- البكري، المغرب، ص76.

[26]- بلعربي خالد، المرجع نفسه، ص285؛ Georges Marcais, les villes d'Art célèbre Tlemcen, Edition tell, Blida, Algérie, 2003. p92.

[27]- - الونشريسي أحمد بن يحي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج8، ص 437.

[28]- هوبكنز، النظم الإسلامية في القرون الوسطى، ليبيا، 1980، ص 124.

[29]- أبو زكرياء، سير الأئمة وأخبارهم...، ص 162.

[30]- فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الإسلامي (خلال القرنين 7-9هـ/13-15م)، رسالة دكتوراه، إشراف: خالد كبير علال، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008-2009.

[31]- الونشريسي، المعيار المعرب...، ج7، ص 59-60-75.

[32]- الماوردي أبي الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تح: سمير مصطفى، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 200، ص 137.

[33]- عبدلي لخضر، التاريخ السياسي والحضاري لدولة بني عبد الواد، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 200.

[34]- الحسن الوزان، وصف إفريقيا،تر:محمد حجي، محمد الأخضر، بيروت، 1983 ج2، ص 20.

[35]- عبد الرحمان بشير، اليهود في المغرب العربي، (22-462هـ/642-1070م)، دار روتابرينت، للطباعة، ط1، 200، ص ص118،114.

[36]- فاطمة بوعمامة، اليهود في المعرب الاسلامي، ص 236.

[37]- نفسه، ص178.

[38]- فاطمة بوعمامة ، المرأة المعلقة في اليهودية ...، ص80.

[39]- يحي بن خلدون ، بغية الرواد...،ح1، ص206.

[40]- عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق، ج1 ص190 .

[41]- ابن خلدون ، بغية الرواد...،ج1، ص 216.

[42]- ابن عذارى، البيان المغرب...،ص 403.

[43]- القهرمان لغة: هو المسيطر و الحفيظ على ما تحت يديه و هو لفظ فارسي معرب يطلق على الذكور و الاناث؛ الزبيدي محب الدين محمد، تاج العروس في جواهر القاموس، تح: علي بشيري، دار الفكر، بيروت، 1994، ج17، ص 599؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص 464.

[44] - برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ط1988،1، ص 490.

[45]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان...، ج1، ص 192

[46]- فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1996، ص77.

[47]- فاطمة بوعمامة، اليهود في المغرب الاسلامي...، ص195.

[48]- هو موسى بن صموئيل بن يهودا الاسرائيلي المالقي الأندلسي ولد سنة 820هـ/11417م ، من أسرة يهودية اسبانية اشتهرت بحاخامتها و اطبائها درس على ابيه و بعض علماء المدينة ، هاجر الى المغرب الأوسط بعد قرار الطرد سنة 1392م برفقة أسرته؛ ينظر: عبد الباسط بن خليل ، رحلة عبد الباسط بن خليل ،نشرها للعربية: روبرت برونشفيك ، باريس ، 1936 ، ص 45.

[49]- المصدر نفسه.